سنعتبر رواية بركات المذكورة(٤) شهادة اكثر معاصرة وعمقا وتمتاز بفن وهيمنة واضحة على حبكتها ومسار تطور احداثها وشخوصها . ولحليم بركات ، المعروف بدراساته الميدانية السوسيولوجية واهتمامه بحركة الطلبة ، مجموعة قصص قصيرة باسم « الصمت والمطر »(٥) وهي لا تخلو من القصص التي تتناول عذاب الفلسطيني وبحثه عن نفسه وسعيه للانتماء من جديد الى أرضه وتاريخه ، ورواية أخرى صدرت قبل حرب حزيران بست سنوات ومعنونة « ستة أيام »(٦) فكأنما كان يتنبأ بحرب الايام الستة قبل ست سنوات من وقوعها التراجيدي !

وبينما تصور « ستة ايام » تخلف القرية العربية واندحار العرب نتيجة هذا التخلف نرى ان « عودة الطائر الى البحر » تخرج عن نطاق القرية الى ما هو أعم وأشمل ، اي الى المدينة . ورمزي بطل الرواية المذكورة يشبه المؤلف الى حد ما . فهو شاب يحب السفر ومثقف غير متحزب ويعيش التأزم ويعاني من الانشطارات الوجدانية التي يعاني منها الكثيرون من ابناء البرجوازية الصغيرة وتأرجحهم بين ولائهم الطبقي وتطلعاتهم الى عالم دينامي وعادل في نفس الوقت . وهو ، كالعديد من المثقفين العرب ، موزع بين حبه للحرية وبين خوفه من اغتيال الحرية في المجتمعات التوتاليتارية واساءة فهمها في المجتمعات الرأسمالية الليبرالية . وهو ، مثلهم ايضا ، يعاني من عيوب المجتمع العربي وعلى قدر لا بأس به من التشخيص « ووضع الاصبع على الجرح الحقيقي » . ووجهات نظره السياسية بدون شك معادية للولايات المتحدة الامريكية ومتعاطفة مع بلدان العالم الثالث ونضال الشعب الفيتنامي . وعلاقة البطل مع باميلا الشابة الامريكية الرافضة (الهيبية) لا تعني تعاطفه مع أمريكا ، وباميلا ، كالعشرات من الامريكيين الرافضين لحضارتهم الرأسمالية ، يمكن ان تشكل نواة الثورة في امريكا او مرحلة الثورة الاولى : هدم أسس وقواعد العالم المتعفن . لقد اختارت باميلا حياة المنفى الاختياري والابتعاد عن الوطن ، وان كان اختيارها هذا يضعف من زخم الثورة ، حيث ان مهمة المثقف والانسان الواعي هي ان يناضل قدر ما يستطيع ضد قوى القهر واللاانسانية في وطنه. الا ان اختيار المنفى والترحال يمكن ان يعتبر احتجاجا سلبيا . فاذا كان المرء غير قادر على مجابهة السلطة القمعية والفاشية في وطنه فعليه على الاقل ان يغادر ذلك الوطن ليحافظ على نقائه وشرفه ويمنع ذاته من التلوث بممارسات السلطة القمعية واغراءاتها المادية .

ولقد أفلح بركات في روايته بتصوير المأساة العربية في فلسطين وخارجها واستعان بمقتطفات من الشعر والاغاني ليعزز من ثقل المادي المرهق بماديته ومباشرته برمزية الغنائي الموجز والمعبر والتقط من المفردات الموحي و« الطازج » الذي لم يلوث تماما بالاستعمال اليومي الرتيب . والرواية كما يراها بركات تعبير عن رؤيته الخاصة للواقع في حالة صيرورة دائمة لان الواقع هذا في حالة تناقض . وهو يعتقد بأن من الضروري ان نقرر الى جانب من نحن ؟ جانب الانظمة أم جانب الشعب . وعلاقته بالواقع علاقة نقدية : علاقة فعل بالواقع لا علاقة انفعال سلبي وقبول .

واذا كانت رواية بركات الاولى « القمم الخضراء » الصادرة سنة ١٩٥٦ « شبه سيرة ذاتية » فان رواية « ستة ايام » هي « سيرة المجتمع نفسه » وفيها توكيد على « ان المجتمع العربي في وضعه الحالي غير قادر على مجابهة التحديات » . اما « عودة الطائر الى البحر » فهي « وثائقية » وفيها أراد بركات « الارتفاع الى مستوى الرمز ووصل الرمز بالواقع ففيها يفقد الرمز تجريديته والواقع آنيته . انها رواية غير محايدة انها مطالبة بتغيير الواقع الحالي »(٧).

ولليلى عسيران مساهمتها الكريمة ايضا . وقد طرقت في روايتها « عصافير الفجر »(٨)